# سيرة فاضل

(تابع ما قبله)

ومن كلام له كتبهُ الى حضرة الشيخ عبد المجيد افندي الخاني من علماء دمشق يصف ما صادف في طريقهِ من دمشق الى بعلبك قولهُ في وصف بقعة مَّا صادفهُ

فوافينا خضرة ونضرة وجمال سمعة ونظارة واشجارًا وانهارًا واثمارًا وازهارًا وحدائق ذات بهجة وحقائق تنعش المهجة حتَّى انتهينا الى موضع غدير من ماء نمير غزير الموارد عذب بارد غير مزدحم بالصادر والوارد ونهر احلى من لمى العذراء يعرف بالعين الخضراء وجدناهُ ابهى من العين السوداء واشهى من الوجنة الحمراء واغلى من البيضاء والصفراء واحسن ما تحت الزرقاء وفوق الغبراء تحف حافتيهِ اشجار بديعة الائتلاف والاصطفاف مكللة بآلاف من الفاكهة متنوعة الاصناف عليها من رونق الورق الموشق ثياب سندس خضر واستبرق ومن الثمر والزهر انواع زمرد وجوهر والنهر بفرط صفائهِ ورقة مائهِ يمُّ على ما باسفل اجزائهِ من رملهِ وحصبائهِ كأنهادرٌّ منثور في باطن بلور او كافور مَزْرور في غلائل من نور يظفر فيهِ كل من الخمس الحواس بحصَّتهِ من نعيمهِ ولذتهِ فالباصرة بحسن روْيتهِ وبهجتهِ واللامسة بلطف ملمسهِ برودتهِ والذائقة بعذوبتهِ والسامعة بخرير تيارهِ والشامَّة بعبير اشجارهِ وازهارهِ فلم نتمالك ان ملنا اليهِ وترامينا عليهِ لائذين من خطر ما مرَّ عائذين بهِ من ضرر الظماء والحر لنتبوأ بهِ مقيلاً ونتفيأ منهُ ظلاًّ ظليلاً ونتلو ألم ترَ الى ربك كيف مدَّ الظلّ ولو شاء لجعلهُ ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليهِ دليلاً . وهو كتاب كلهُ غرر جدير ان يشهر ويثار

وكتب رحمهُ الله الى سعادة علي باشا مبارك ناظر المعارف كتابًا من لوسرن من اعمال سويسرا عند ما كان رئيسًا على الوفد العلمي الذي استوفدهُ ملك السويد والنرويج فمَّا جاء في ذلك الكتاب قولهُ في وصف بعض ما صادف

رأيت ان استميح شريف خاطرك بشيء مما رأيناهُ وسمعناهُ في فسحة هذا النهار التي فرغنا منها الآن حين لم يتقادم عليهِ الزمان كالثمرة القريبة العهد من القطاف والخروج من القشر والغلاف لم يدنسها عبث العابث ولم يذبلها طول مكث الماكث فان أبيتها فألقها ناحية هناك وان رغبت في الاطلاع عليها فهاك

خرجنا من مثوانا نجعل مأوانا في موقع من احسن المواقع على بحيرة لوسرن من اشهر بحيرات هذه المواضع وهي حرية بذلك في الواقع فخطونا خطوات من محلنا قلائل الى الباخرة المتهيئة للمسير على الساحل فاقلعت بنا

يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المغايل باليد

ونحن نرمي بالابصار الى ما حولنا من الديار المنتظمة بلبات ذلك الماء انتظام فرائد القلائد على الغادة الجيداء والمنتشرة في المروج كالكواكب في البروج بينها المشرف على تلك القلال اشراف الهلال والمشرق اشراق الشموس في هامات تلك الذرى والرؤوس يتخلف بها المناظر بين اخضر ناضر وازرق زاهر الى ابيض ناصع واحمر يانع واصفر فاقع هرمية السقوف بين شتى وصنوف لم يلابسها الغبار ولم تدنسها الاقذار تقول لم يفارقها قبل هذه الساعة المعمار وحولها النبات والاشجار زاهية الاخضرار متلونة النوار متنوعة الاشكال والثمار متوالية غسل ابدانها الامطار فهي تتألق تألق الانوار وتأخذ بمجامع البصائر والابصار وتذهب بالافكار ذهاب التيار بمرج البحار قد عرف اهلها بمقدار نعمة المنعم الكريم فأدوها حقها اعتناء واحتفاء واعتنوا بمعرفة اسرار حكمة الصانع الحكيم فاهتدوا اليها بقدر تو اهتداء ولا جرم فالحق جلت نعمته وعلت عظمته يعطي على السؤال بلسان الحال والاشتغال بالسبب ما ليس يعطيه على السؤال بلسان المقال الذي يعتريه الكذب في الرغب والرهب بخلاف اللسان الاول فهو مميز بالعصمة من هذه الوصمة فالزارع منا اذا غرس شجرة او القى في الارض الحرة بذرة ثم تولاها من السقي والخدمة بكل ما في وسعه من الهمة قد سأل الله سبحانه بلسان حاله فأعطاه ما استحق وفوق ما استحق من نواله فقد اجرى عادته وهو اكرم مسئول أن لا يقابل سؤال لسان الحال الا بالقبول بخلاف ما لو زرع في غير مزرع او اعرض عن واجب الخدمة وامتنع وقعد يسأل الحق بلسان المقال اناء الليل واطراف النهار ان يرزقه منها أطايب الثمار ويستزيده الاكثار فقد اساء الادب ولم يحسن الطلب فطالب الحق جلت قدرته بما يخالف ما جرت به سنته فلا يجد لذلك سبيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا فاستحق ان يحرمه ابدا ولا يظلم ربك احدا

ألم ترَ أن الله قال لمريم وهزي اليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء ان تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل شيء له سبب

فسبحان من أبدع وأبدى واعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه هي الهداية العامة لكل

ناطق وصامت وحيوان ومعدن ونابت قد عم كلاً بهذه الهداية لما يليق بحاله ويبلغه الترقي في معارج كماله

ومن ذلك الكتاب في موضع آخر اما البحيرات التي تُرى من تلك الذروة في اوقات الصحو فتبلغ ١٤ عدًّا ويمتدُّ النظر في هذا الموضع الى مئات من الفراسخ بعيدة الانحاء مختلفة السموت لها من غرائب المناظر وعجائب المظاهر ما تنقطع دونه الاوصاف والنعوت لاسيما الجبال المكتسية بديباج من الثلج ابيض المتحصّنة بدرع من الزرد البديع النسج منضض واذا تأمل الواقف بهذه الذروة العالية فيما يراهُ تحت قدميه من المواقع السافلة والاغوار النازلة يتخيل ان ليس بها نسبة مخلوقة ونفس منفوسة لانقطاع الصوت وانصال الصمت وغاية تصاغر المنظر لبعد السمت وحول هذه الذروة من المنازه والمنازل والخضرة والنضرة والارواح والادواح ومواطن الانس والانشراح والراحة والارتياح والمباحثة والمناظرة والمسامرة والمسابرة ما لم يكن بخطر ببال او يتصور بحال الى آخر ما قال

ولهُ رحمة الله كتاب صغير في نصائح الناشئين ويسمى بالفوائد الفكريّة قد تنزل فيه الى موافاة افهام الصغار مع الفصاحة البارعة والبراعة الرائعة وانا نذكر منها فصلاً في اجل المواضع فضلاً

"اوصيك ايها الولد الناجح بالشفقه والرحمة على جميع العالم فان الرحمة هي الوصف الذي يحبهُ الله ويرحم كل من يتصف بهِ كما قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن وهذا الوصف الجميل اعني الرحمة والرأفة والشفقة قد جعلهُ الله سبب حياة العالم ونظام الكون وعمارة الارض ولولاهُ لخربت الدنيا انظر الى امك وابيك واهلك فانهم لو لم يكن عندهم رحمة وشفقة عليك في صغرك لتركوك في الحر والبرد والجوع والعطش تبكي وتصيح ولا يشفق عليك احد حتّى تشق مرارتك من البكاء وتموت ولو كانت الرحمة منزوعة من اخوانك لكانوا اذا رأوك واقعًا في مهلكة لا ينقذونك منها بل يتركونك تهلك حتّى لو كان الواحد منهم يطلب شيئًا ينفعهُ ويكون فيهِ تلفك يفضلهُ عليك ويطلبهُ ولا يبالي بتلفك فالرحمة التي جعلها الله في قلوبهم هي التي تحنن عليك وكذلك لو كانت القلوب خالية من هذه الصفة لكان الناس يقتل بعضهم بعضًا وتموت الجميع بعمل ايديهم فالرحمة هي السبب في بقاء الناس متلذذين متنعمين ومن حكمة الله انهُ لم يجعلها خاصة بالناس بل جعلها عامة في الحيوانات ايضًا فان البقرة تحن الى ولدها وتصيح عند فراقهِ وتطلبهُ وتحب ان ترضعهُ وهكذا الهرة وغيرها فانت يابني ان كنت تحب ان تكون من عباد الله الصالحين لابد ان تكون

رحيمًا شفيقًا فاذا رايت شخصًا واقعًا في مهلكة وامكنك ان تنقذهُ منها فعليك ان تمد يدك لمساعدتهِ وتخليصهِ واذا اراد احد ان يظلم آخر بضربهِ او نهبهِ واهانتهِ وتخويفهِ وامكنك ان تمنعهُ من الظلم فاعمل ما تقدر عليهِ في ذلك لاجل ان تحسب من الرحماء الممدوحين عند الله والناس . وكذلك اذا رايت شخصًا شريرًا او لعابًا او قليل الادب او متلاهيًا عن الدروس او موصوفًا بشيء من الامور المذمومة فاعلم ان هذه مصيبة كبيرة وقعت بهِ فان الشرير القليل الادب او المتلاهي عن دروسهِ الذي لا يحفظها او يحفظها لكن لا يفهمها تكون عاقبتهُ الحسرة والندامة والهلاك لانهُ لا يكون عندهُ صفات ممدوحة يتمكن بها من معاشرة الناس ويجلب بها محبتهم ولا يكون عندهُ علم ولا بصيرة تكشف النور من الظلام والضلال من الهدى والحق من الباطل والطيب من الرديء فيقع في الامور المضرة المهلكة من غير ان يعلم . واذا كان جاهلاً لا يقدر ان يتقن صنعة يكتسب بها معيشة حسنة لطيفة يرتاح بها من جميع الاتعاب والشقاء فيعيش معذبًا في نكد واشتغال بال وتشتيت خاطر فهذا الجاهل او القليل الادب يكون في مصيبة من غير شك فانت يلزمك ان تشفق عليهِ وترحمهُ وتأسف على حياتهِ التعيسة السيئة وتبذل جهدك انت واخوانك في تهذيبهِ ونصحهِ وازالة جهلهِ على قدر الامكان فانك ان قدرت على تخليصهِ من كل هذه الرذائل او بعضها او كنت مع غيرك سببًا في ذلك تعد من اهل الحمية والشفقة والرحمة والهمة والصفات الممدوحة عند الله وعند الناس ويحصل لك الشرف الحقيقي والمدحة الحقة . واذا لم يمكنك وعجزت عن انقاذ هذا المسكين المصاب بمصيبة في عقلهِ وروحهِ فتاسف عليهِ واطلب من الله القادر على كل شيء ان يحفظك مما حل بهِ ولا تكن كالسفهاء الاغبياء القاسية قلوبهم الذين اذا راى احدهم غيرهُ واقعًا في مصيبة لا يلتفت اليهِ فمثل اولئك الاشخاص لا يعدون من نوع الانسان الا بحسب الصورة والهيئة فقط واما طباعهم فانها طباع البهائم التي لا تفتكر الا في اكلها وشربها ولا تبالي بغيرها بل بعض الحيوانات يساعد بعضها بعضًا انظر الى النمل مثلاً تجدهُ يساعد بعضهُ بعضًا في بناء مسكنهِ وجلب لوازمهِ وكثيرًا ما نرى النملة تريد ان تجر قطعة من السكر مثلاً او الحب او غيرهِ من لوازم معيشتها فاذا لم تقدر عليها تجد معها كثيرًا من جنسها يساعدها عليها وتجرها حتى تنقلها وهكذا النحل يتعاون في انشاء مساكنهِ ومخازنهِ وجلب لوازمهِ ودفع من يريد التعدي على بعضهِ او على وطنهِ فمن يتأخر عن مساعدة غيرهِ مع امكنهِ يكون اقل منزلة من البهائم ثم اقل من هذا واقبح منهُ من يفرح بمصيبة غيرهِ ويسرهُ ضرر سواهُ واقبح من هذا واضل من اساء حالاً ومآلاً من يضر الناس ويظلمهم في انفسهم او اعراضهم او اموالهم ويؤذيهم بقولهِ او فعلهِ فهذا شر

خلق الله واقبح خلق الله وابغض الناس الى الناس والى الله كما ان أحب الناس الى الناس والى الله اكثرهم منفعة لخلق الله

فاجتهد يابني في التباعد عن ظلم الناس غاية التباعد واحترس كل الاحتراس من الاضرار بالناس واعلم يابني ان ظلم الناس والتعدي عليهم ليس كغيره من الذنوب التي يغفرها الله ويعفو عنها بمجرد التوبة والندامة والاستغفار بل حقوق الغير لا يغفرها الله سبحانه الا بسماح اصحابها ورضاء قلوبهم فاحذر من الظلم والضرر نهاية الحذر وكن ذا رأفة وشفقة ورحمة ومساعدة للناس بقدر ما يمكنك بحيث لا يضرك

وكما انك ترحم الناس يلزمك ان ترحم الحيوانات ايضاً فان كان عندك شيء منها فلا ينبغي عليك ان تعذبها فتتعبها او تحملها فوق طاقتها بل تعتني بمأكولها ومشروبها وسائر لوازمها واياك ان تكون مثل بعض الاولاد الاشقياء السفهاء الذين ياخذون الطيور الصغيرة كالعصافير ويعذبونها وربما يقتلونها على انهم يسلون انفسهم بذلك ويضحكون ويتبسطون بتعذيب هذا الحيوان المسكين او بضرب الحيوان بالعصا او السوط بلا فائدة فمثل ذلك يعد من قلة العقل وسوء التربية ورداءة الطبع وقسوة القلب وعدم الرافة والرحمة وقد يحصل لهم العتاب على ذلك

يحكى ان الزمخشري احد كبار العلماء المشاهير صاحب كتاب الكشاف في التفسير كان في صغر سنه وايام صباه قد اخذ عصفوراً وربط برجل العصفور خيطاً طويلاً وصار يلعب به فرأته امه فرق قلبها للعصفور المسكين وادركتها الشفقة لما رأته فيه من العذاب والمشقة فصارت تطالب من ابنها ان يتركه فلم يمتثل ولم يقبل منها وصار العصفور يطير من محل الى محل وهو مجذبة بالخيط فانقطعت رجل العصفور فاغتاظت ام الزمخشري وغضبت ودعت عليه بقطع رجله كما قطع رجل العصفور فلما كبر الزمخشري سافر الى بعض البلاد فاصاب رجله شدة البرد من كثرة الثلج فدانت رجله وقطعت . وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها فلا هي اطعمتها ولا تركتها تطلب ما تاكله . واذا كان هذا حال من يحصل منه الاذى للحيوان فكيف يكون حال من يفعل الظلم والضرر بالادمي الذي اكرمه الله تعالى وفضله على غيره من المخلوقات

والنظر العجيبة ان بعض الحيوانات التي تتغذى باللحوم تأكل من غير نوعها ولا يأكل بعضها بعضاً فالسبع مثلاً يأكل من الجمل والغنم وغيرها ولا يأكل السباع والذئب لا يأكل الذئاب والكلب لا يأكل الكلاب كأن كل نوع يحترم بعضه بعضاً مع انها حيوانات غير عاقلة فكيف يصح من الانسان انه لا يحب ابناء نوعه من الناس مع

انهم محتاجون كل منهم الى الآخر ولهم عقل يميزون بهِ الخير من الشر ويعرفون قيمة المحبة والرحمة وفائدتها فيلزم ان تكون محبة الناس بعضهم لبعض اتم من غيرهم

واعلم يا بني وفقك الله تعالى للخير والرشاد وهداك لما فيهِ نفعك ونفع العباد ان المحبة الصحيحة التي يتميز بها بنو آدم عن غيرهم ويكون بها الشخص فاضلاً عاقلاً واديباً هي المحبة الصادقة التي تكون بنيَّة خالصة وسريرة سليمة فتكون ثابتة دائمة عند غياب الشخص وعند حضورهِ ويترتب عليها فوائد مثل كون الشخص يسعى للآخر في الخير والفائدة ويرغبهُ في كل ما ينفعهُ ويشرّف قدرهُ ويعدهُ كمالاً وفضلاً وبنهاهُ ويحذرهُ عن كل ما يضرهُ او يخل بشرفهِ او يعد نقصاً وعيباً . ويوجد بعض من الناس اذا قابل احدهم الآخر يضحك في وجههِ ويقول لهُ اوحشتنا وانسنا وانا مشتاق اليك كثيرًا ويظهر لهُ انهُ يحبهُ وعند ما يفارقهُ يتكلم في حقهِ بالكلام القبيح او يضحك عليهِ او يسعى اليهِ في الضرر واذا كلمهُ يغشهُ او يحسن لهُ القبيح فهؤلاء الناس يحسبون من الاشرار المنافقين لانهم يظهرون للناس خلاف ما في قلوبهم فيغرونهم ويضرونهم فتكون صورة الواحد منهم صورة الانسان وحقيقتهُ حقيقة الشيطان الخبيث الذي طردهُ الله الى الابد فاذا رأيت واحداً من هؤلاء فتأسف عليهِ واعلم انهُ مصاب بمصيبة كبيرة وهو النفاق واجتهد ان امكنك مع اخوانك في تخليصهِ من هذا الوصف حتى يكون سليم القلب صادق القول فينفع نفسهُ ويعيش بعيشة سعيدة"

ونختار من شعرهِ بعض ما جاء في قصائدهِ التي امتدح فيها الجناب الخديوي الرفيع فمن قصيدتهِ التي عرضها على المقام السامي يعتذر بها عما نسب اليهِ قولهُ

ولي فيك آمال ضمنتُ نجحها ... وفاؤك لا ارجو سواك لها ذخرا
وقد مرَّ لي فوق الثلاثين حجةً ... بخدمة هذا الملك لم ألفها صبرا
أرى الصدق فرضاً والعفاف عزيمة ... ونصح الورى دينًا وغشهم كفرا
وجاورتها لا لي عقار يفيدني ... كفافاً ولا في الكف قد ابتغي وفرا
ولو شئتُ كانت لي زروع وانعم ... ومالٌ بهِ الآمالُ اقتادها قسرا
ولكنها نفس فدتك ابيةٌ ... تعاف الدنايا ان تمرَّ بها مرا
فمُنَّ فقد ألفيتَ موضع منَّةٍ ... وربك لا ينسي لذي منةٍ اجرا
فلا زلت مأمولاً مُرجّى مهنَّا ... بما ترتجيهِ العام والشهر والدهرا

ومن قصيدتهِ التي رفعها الى السدة السنية شكرًا لنعمة الالتفات بعد الاعتذار قولهُ

وقد عشتُ عمرًا اتقي عادي الهوى ... واسحب اذيال الخلي المسلّمِ

ألوم على دين الصبابة اهله ... واسخر من حال العميد المتيم
الى ان رمى قلبي هواك باسهم ... تلقاها يد البين المشتّ باسهم
فأصبحتُ أحمى بالذي كنتُ لاحيًا ... عليهِ وأرمى بالذي كنتُ ارتمي
أعدْ عذاب الحب عذبًا وبؤسه ... نعيمًا ومن يبلَ الصبابةَ يعلم
بلوت الهوى حتى عرفتُ صروفهُ ... جميعًا على الحالين بؤسٍ وانعم
فلا النأي بي ينأى عن الوجد والهوى ... ولا القرب بي يدنو لبعض التبرم

ومنها

لقد كذب الواشون فيما سعوا بهِ ... من الغي في طي الحديث المرجم
وقد وسموني بالذي انسمو بهِ ... وما القول الاّ لبسة المتكلم
وقد غرّهم اصغاء سمع وراءهُ ... فواد لهُ عين على كل مبهم
يطالع مكنون الغيوب مسطرًا ... على صفحات الوجه عند التوسم
فيستطلع السر الخفي مؤيدًا ... بنور اليقين المحض لا بالتوهم
ويدرك غب الغيب عنوًا بحكمةٍ ... ورأي صواب لا برؤيا مهوم
فلا يحسب الباني على الزور مابنى ... سيلبث الا قيد وشك التهدم
سيطفيهِ نار الافك سيل عرمرمٌ ... من الصدق مشفوع بسيل عرمرم
ويصدع نور الحق ليلٌ واضحًا ... فيلوي بليل من دجى المين مظلم

ومنها

ولكنني انهى اللسان عن الخنا ... والوي عنان الأعوجي المنوم
ساضرب صفح القول عنهم نزاهةً ... واطويهِ طي الانحميّ المسهم
وافزع بالشكوى الى حكم عادل ... بصير ببادي امرهم والمكتم

ومن قصيدته التي هنأ بها الجناب الرفيع يوم ارتقائهِ على اريكة الخديويّة الجليلة

اليوم يستقبل الآمال راجيها ... ويجلي عن سماء العز داجيها
وتزدهي مصر والنيل السعيد بها ... والملكُ والدينُ والدنيا وما فيها

ومنها

هنئت عالياء قد وافتك خاطبة ... تختال تيهًا وتزهو في بهاديها
عالياء فاتت سموًا كل منزلة ... فلم يكن في سواها ما يساويها
رأت علاك فشاقتها حلاك فلم ... تسمح لغيرك من خل يجاليها

وكم سمت نحوها نفس تؤملها من قبلُ لكنها ضلّت مساعيها
نجاذبوها فرثّت في اناملهم حباطها وتمادت في تنائيها
قضوا غراماً ولم يقضوا بها وطراً فكان اصل مناهم في امانيها

هذا بعض ما اقتطفناهُ فاوردناهُ . وفي كلامهِ رحمهُ الله ما لو تتبعناهُ لملأنا الصحائف من الطرائف واستغرقنا الاوراق فيما عذب وراق . ومن اراد ان يستزيد من الاطلاع على غرر نثرهِ ودرر شعرهِ فعليهِ بما نقل منهُ في كتاب الوسيلة للشيخ حسين المرصفي رحمهُ الله

وللمترجم آثار في الادب كثيرة منها المملكة الباطنيّة المطبوعة في سنة ١٢٨٩ هجريّة ومنها الفوائد الفكريّة ومنها شرح بديعيّة صفوت ومنها جزء من شرح ديوان حسان ابن ثابت رضي الله تعالى عنهُ وغير ذلك سوى المراسلات والمقالات التي لو جمعت كانت مجلدات

تقدّم انهُ رحمهُ الله تولى وكالة ديوان المكاتب الاهليّة مدة طويلة ثم عيّن وكيلاً للمدارس ثم ناظرًا لها . وكانت المكاتب اول ما تولاها في ادنى درجة من النظام ولم تكن الاّ من النمط الذي يسمى الآن كتاتيب ثم ارتقت في عهدهِ الى ان صارت حافلة ببدائع العلوم النافعة آهلة فوُضعت القوانين لسيرها ورتبت دروسها على الوجه المؤدي الى الغاية منها ورسخت في الانتظام قواعدها وظهرت للعامة والخاصة فوائدها واقبل الناس عليها وانثالوا بابنائهم اليها حتى اصبحت حافلة بالتلامذة يتولى ادبهم افضل الاساتذة وصارت مادة غذاء للمدارس الاميريّة وسلمًا يرقى عليهِ الى المدارس الخصوصيّة

وكان رحمهُ الله مرجعًا لمن تفوض اليهم نظارة المعارف يشركونهُ في مهمات الاعمال ويستمدون رأيهُ في ما انسهم من الاحوال يستضيؤن برأيهِ في المشكلات ويهتدون بفكرهِ الى حل المعضلات يرشدون الى مواضع الاصابة بمصباح علمهِ ويستكشفون ما غمض من المقاصد بلسان قلمهِ فلهُ رحمهُ الله في تاريخ المعارف المصريّة اعمال تذكر وآثار تؤثر وتشكر ولهُ في تقدمها اياد يقدرها العارفون ولا ينكرها الجاهلون

وكان رحمهُ الله عفيفًا نزيهًا مبالغًا في اتقاء الشبهات متشددًا في التحرج من المحظورات فنفسهُ كما قال " تعاف الدنايا ان تمر بها مرًّا " تبرجت لهُ الدنيا في احسن حلاها وتعرضت لهُ في ابهج زينتها واعلاها وتوسلت اليهِ ان ينال منها فكان كما قال

ولو شئت كانت لي زروعٌ وأنعم ومال بهِ الآمالُ اقتادها قسرا

فقابل الاقبال منها بالاعراض عنها واختار حلية الشرف على لذة الترف وآثر الفضيلة

على المنافع الجزيلة ورضى بالكفاف مع مزيّة العفاف فباء بالثناء الخالد ولسان الصدق المؤيّد

وكان شديد التمسك باحكام دينهِ متبصرًا في اعتقادهِ و يقينهِ صافي الاعتقاد مما يؤخذ عليهِ بالانتقاد يرى الاسلام دين الدهر لاتنقضي ايامهُ ولا تقصر عن مصالح الازمان احكامهُ يتفق مع اصول المدنيّة و ينهض بالامم في جميع مراتب الانسانيّة لاينافي حقيقة علميّة قطع بها البرهان ولا يأبى لاهلهِ تحلية الاذهان بالوقوف على اسرار عالم الامكان بل يسوقهم الى البحث في كل كائن كان توصُّلاً الى ادراك الحقائق على قدر الامكان . فكان رحمهُ الله مع الشدة في تدينهِ ميالاً الى النظر فيما كشفهُ المتأخرون وانتهى اليهِ في بحثهم الناظرون داعيًا الى التفنن في المعارف الجديدة حاثًا على احراز فوائدها العديدة يرشد الى ما نقول ما كتبهُ في حركة الارض و بعض مسائل فلكيّة فقد ذهب فيهِ الى تطبيق ما انتهى اليهِ النظر على ما جاء في الكتاب والسنة وصحيح الاثر فكان يذهب الى ان كل كمال حقيقي يرجع عندهُ الى اصل ديني فدينهُ مع صحتهِ يسع كل كمال ما بلغ من غايتهِ غير انهُ كان لايستحسن تقليد الاوربيين في غير الفضائل ولا يجد مزيّة لتغيير العوائد بما ليس ثمة طائل بل كان يقول ما احتجنا اليهِ اخذناه وما استغنينا عنهُ تركناه وما يتفق مع مصالحنا الحقيقيّة نأخذهُ وما يفسد من ملكاتنا واخلاقنا ننبذه وفي مقالهِ رحمهُ الله ما يؤيد رأيهُ هذا شيء كثير و بيان شهير .

وكان رحمهُ الله رؤوفًا رحيمًا بارًّا كريمًا سلس الاخلاق لين الجانب لطيف المحاضرة بعيدًا عن المعاسرة قريبًا الى المياسرة ينتصف من نفسهِ في الحق ولاينصرها في الباطل لايأبى ان يقول اخطأتُ متى أقنع ولا يخشى اذا ظهر لهُ خلاف رايهِ ان يرجع فكان الحق اميرهُ والهوى اسيرهُ يأتمر لذاك في كل امره و يخضع هذا لسلطان قهره وكان صادق اللهجة لا ينطق بكلمة حتّى تكون لها في نفسهِ حقيقة واقعة

حضرتهُ يومًا مع صديق لهُ فسألهُ الصديق ان يكتب لهُ شهادة يقول فيها ان هذا هو فلان (اسم صديقهِ) ليتقدم بهذه الشهادة الى المطبعة الاميريّة فياخذ كتابًا كان قد اشترك فيهِ وناظر المطبعة يأبى ان يسلمهُ لهُ حتّى يشهد لهُ رجل معروف عندهُ بانهُ هو المشترك . فابى المرحوم من تأدية هذه الشهادة مع انهُ يعلم ان صديقهُ هو بعينهِ المشترك ولا يعلم لهُ شريكًا في اسمهِ وقال من المحتمل ان يكون شخص آخر بهذا الاسم هو المشترك وانا لم اكن حاضرًا وقت الاشتراك فكيف اقول قولاً بحتمل خلافهُ .

و بالجملة فكانت لهُ صفات تجمع من الفضائل ما يندر في غيره وقد كانت البلاد في اشد الحاجة اليهِ وكانت آمالها تحوم عليهِ فخسرت بفقدهِ اجل نصير ولكن الحكم لله نعم المولى واليهِ المصير